الوحدات الزراعية واستغلالها

بعد الاحتلال الروماني لنوميديا الشرقية (46ق.م) ضمت إلى مقاطعة إفريقية، ظهرت الملكيات الواسعة التابعة للرومان، وأصبحت الملكية الخاصة الطابع السائد للمغرب القديم، حيث صودرت الأراضي الزراعية ووزعت على عدة فئات تابعة للرومان (الإمبراطور+الطبقة الارستقراطية + قدماء المحاربين + الأهالي المتعاونين) وتختلف وضعية كل فئة عن أخرى، فمثلا كانت الدولة تمنح الأرض للطبقة الارستقراطية وتكون معفية من الضرائب، كما كانت تبيع قطع أراضي صغيرة ومتوسطة للمواطنين الرومان خاضعة للضرائب. ونجد الملكيات الكبيرة التي كانت تابعة للإمبراطور والطبقة الارستقراطية والتي كانت تبلغ أحيانا مساحتها آلاف الهكتارات وتعرف بـ Latifundia أوSaltus ، كما وجد من الأهالي من امتلك مساحات شاسعة مثل عائلة Nubel التي كان الثوري الشهير فيرموس) (firmus) القرن4م) واحدا من أفرادها، وهذا ما يؤكد استفادة أسر محلية من ملكيات واسعة بفضل تعاونها مع الرومان. وما يدل على شساعة الملكيات الخاصة أن الإمبراطور نيرون قد صادر أراضي بعض الملاك كانوا يملكون تقريبا نصف الأراضي الإفريقية

أ – استغلال الأراضي قبل الاحتلال الروماني (الاستغلال المباشر(

سادت الملكية الجماعية في بداية ظهور الزراعة، فكان الأهالي يعتمدون على أنفسهم أو بالتعاون مع كل أفراد الأسرة أو القبيلة من الحرث إلى الحصاد، لكن مع بروز الممالك الوطنية، تعدى ملكية الملوك من أملاكهم الخاصة إلى كامل أراضي المملكة، فمثلا ماسينيسا كان يملك آلاف الهكتارات وبهذا لم يكن بمقدورهم إدارتها أو الإشراف عليها بأنفسهم، لذا أخذوا يعتمدون على مشرفين ومسيرين لإدارة مزارعهم وجمع المحاصيل والضرائب العينية ليبدأ معهم ظهور الاستغلال الغير مباشر الذي ساد خلال الاحتلال الروماني.

لكن عموما عملية استغلال الأراضي لا تزال مبهمة مثل الملكيات (قبل الاحتلال) لنقص النصوص التي تتحدث عن ذلك، لكن عموما كانوا يزرعون بأنفسهم ويقتصدون في المحاصيل من أجل أن يجدوا ما يدفعوا به الضرائب للممالك المحلية كما أغلب الاحتمال أن الرجال كانوا يشركون معهم النساء في العمل على الأرض.

أما العبيد فهي ظاهرة لم تكن منتشرة كثيرا بالمغرب القديم ونادرا ما نجد إشارة إلى استخدام عبيد في خدمة الأرض قبل الاحتلال الروماني، فربما كان أكثر ثمنا من أن يتمكن العامة من شرائهم، وحتى خلال الحروب كانوا يتخلصون من الأسرى أفضل من إطعامهم. وعلى العموم

يبدو أن الملوك المحليين قد عملوا على الحد من الصراعات القبيلة، وحاولوا السيطرة على تجارة العبيد لما فيها من ربح، وأهم مصادرهم من العبيد كانت الثورات القبلية.

وبهذا يمكن القول أن وجود مساحات زراعية شاسعة قبل الاحتلال الروماني أدى إلى اعتماد الأنظمة الرومانية في Saltus بمنح قطع من أراضيهم للفلاحين لخدمتها مقابل جزء من محصولهم. (أي الاستغلال من طرف رجال أحرار ليس من طرف عبيد.(

ب- أدوات الإنتاج الزراعي:

أشاد المؤرخون القدامى بخصوبة أراضي المغرب القديم، فأشار هيرودوت إلى خصوبة افريقية مقارنا إياها بخصوبة أرض بابل ، وأشار سترابون إلى أنه في افريقيا بعد الحصاد يكفي تحريك التربة بأي وسيلة لكي تنبت الأرض زرعا جديدا من البذور التي سقطت خلال الحصاد ، أما بوليب فقد أشار أن نوميديا قبل ماسينيسا لم تكن لها أية أهمية فلاحية وأن هذا الملك هو الذي جعلها منتجة بسياسته الفلاحية التي حولت الأرض البور إلى أرض خصبة.

لكن هذه الإشارات تبقى تبقى مبالغة ودون تقديم تفاصيل عن طريقة العمل بالأرض، ويرى الكثير من المؤرخين أن المغاربة القدامى كانت لهم تقنياتهم الخاصة في مجال الفلاحة ، تعود هذه التقنيات على الأغلب لما قبل قدوم الفينيقيين، فعلى المستوى الأدوات استخدم المغاربة المجرفة قبل معرفتهم بالمحراث، كما استخدموا المعول وأنواع من المعازيق المحلية، أما المحراث فقد أجمعت الدراسات على وجوده محليا ولا يد للقرطاجيين في إدخاله بلاد المغرب.

كما استخدم المنجل في أعمال الحصاد والذي يعتبر قديم الاستخدام ببلاد المغرب، وربما يعود حتى للفترة النيوليتية مثلما سبق ذكره، وللدرس نجد طريقتين أولى بدائية ظلت تستخدم ببلاد المغرب إلى فترة قريبة وهي الطريقة التي تقوم فيها الحيوانات الكبيرة (كالثيران، الخيول، البغال والأحمرة) بالدوس على السنابل، والطريقة الثانية الأكثر تطورا، وهي تستخدم عربة تعرف بالعربة البونيقية التي تتكون من قطعتين من الخشب بعجلتين صغيؤتين مسننتين من الحديد.

وكان النوميد يضعون المحاصيل الزراعية من قمح وشعير قبل تسويقها أو مداد الضرائب بها في خزائن للمؤن أرضية، واستخدموا أيضا المطامير التي أشارت إليها بعض النصوص في ولاية افريقيا منتصف القرن الأول قبل الميلاد ، حيث حفرت بجوار المزارع والقرى المحيطة بحقول القمح والشعير للمحافظة عليها من محاولات السلب والنهب والمصادرة.

ج – استغلال الأراضي في ظل الحكم الروماني:

خلال الفترة القرطاجية معظم النصوص تشير إلى وجود ملكيات واسعة يقوم بالعمل فيها العبيد بشكل عام ولم تشر هذه النصوص إلى رجال أحرار يقومون بتقاسم الإنتاج مع الملاك. أما خلال الفترة الرومانية فقد تغيرت وضعية الأرض بعد الاحتلال حيث أعلنت روما أن كل الأراضي المحتلة هي ملك للشعب الروماني، ووفقا لذلك فقد سخرتها لحاجاتها من القمح بشكل أساسي إضافة للزيت والخمر.....

ولندرك مدى أهمية أراضي المغرب القديم الزراعية والمحاصيل بالنسبة إلى روما نشير إلى أن عدد الذين يتحصلون على غذائهم مجانا من المواطنين الرومان في عهد الإمبراطور أوغسطس أوكتافيوس كان 200 ألف شخص.

وقد بيعت الأراضي الزراعية في إفريقية بمزاد علني بروما، كما تم منح الأراضي للطبقة الارستقراطية، ثم انتشرت ظاهرة توطين روما الكثير من المواطنين الرومان العاطلين، وقدماء الجنود للتخلص من المشاكل التي يحدثونها في روما وذلك بمنحهم أراضي صغيرة ومتوسطة انتزعت من الأهالي في فترات لاحقة عنوة (استجابة لتهافت الطبقة الارستقراطية الرومانية من امتلاك أكبر المساحات وعلى رأسهم الإمبراطور لم يبق لها شيء لتمنحه فيها بعد. (

1/ الأراضي الصغيرة والمتوسطة : والتي كانت تقدم أساسا لقدماء المحاربين ومن يتمتع بالمواطنة الرومانية، فقد تكونت منهم عدة مستوطنات خاصة بافريقية ونوميديا الشرقية التي بدأت تتشكل منذ القرن الأول ميلادي (ربما عهد تيبيريوس)، حيث من المحتمل أنهم انتزعوا أراضي الأهالي التي كانوا قد حصلوا عليها وفق قانون L'ex Manciana الذي أصدره يوليوس قيصر بعد احتلال نوميديا عام 46 ق.م (والذي منح الحق لسكان منطقة من استغلال الأراضي غير الزراعية باستصلاحها والعمل فيها، ولهم الحق في توريثها ماداموا يحافظون على النشاط الزراعي بها ويدفعون في مقابل ذلك ضريبة للرومان تختلف حسب محاصيلهم.(

وقد قام الرومان والإيطاليون الذين حصلوا على هذه الأراضي مجانا بالعمل عليها بشكل مباشر، فعملوا بها بأيديهم، يساعدهم في ذلك أفراد أسرتهم، ويتم الاعتماد أحيانا على عبد أو اثنين للعمل، وحتى الأجراء عند الضرورة، لكن مع مرور الوقت انتشرت ظاهرة بيع هذه الأراضي للوافدين الجدد، وأحيانا يتم بيعها في روما، وأصبح الملاك الجدد من الرومان يكونون طبقة

ارستقراطية محلية، وبذلك تخلوا عن العمل بالأرض وأصبحوا يقضون وقتهم في اللهو والترف، بل كانوا ينتقلون إلى مركز المدينة واحتقروا العيش بالمزرعة.

ولأنهم استخدموا العبيد في خدمة أراضيهم فقد كانوا يعينون رجل حر يدعى procurator)وكيل) يقوم بتسيير المزرعة، ويكون تحت رقابة شخص آخر يدعى (vilicus) والذي غالبا ما يكون عبدا للسيد مالك الأرض.

وكان هذا التأجير للأهالي يتم عبر عقد يدفع من خلاله المستأجر حصة من الإنتاج لمالك الأرض، كما يكونون بدورهم ملتزمون بالعمل ستة أيام في السنة مجانا في الأرض (يومان في الحرث ويومين في الحصاد، ويومين في تنقية الزرع) إضافة للحراسة المجانية للأملاك.

لكن هذا النظام كان نادرا في الملكيات الصغيرة لأنه مع مرور أصبح الملاك يوسعون مزارعهم بشراء الأراضي المجاورة أو الاستيلاء عليها عند وفاة المالك دون وريث، لذا يمكن القول أن ملكياتهم أصبحت ضيعات واسعة وأصبحت إدارتها شبيهة بأراضي.(saltus)

-/2استغلال الضيعات الواسعة:تتميز هذه الضيعات باتساع مساحتها التي تتجاوز أحيانا آلاف الهكتارات تملكها الطبقات الارستقراطية المتمثلة في الإمبراطور وحاشيته وأعضاء مجلس الشيوخ. وعرفت هذه المستثمرات بأسماء عديدة حسب طبيعة الأرض بها : اللاتيفونديLatifundia ، الفندسFundus ، السالتوسSaltus ، البريديا .Praedia

=1السالتوس : الذي يطلق على الأراضي الغابية والرعوية والبراري، كما يطلق في بعض الأحيان على الأراضي المزروعة، وتوجد عموما خارج المدن وتعود ملكيتها للطبقة السيناتورية أو ضمن أملاك الإمبراطور. غير أنه من الخطأ اعتبار تسمية السالتوس تنطبق فحسب على الأراضي الرعوية والغير صالحة للزراعة، حيث وبعد التوسع الزراعي الروماني وعمليات استصلاح الأراضي تحولت لأراضي زراعية (غالبا للكروم والزيتون) مع احتفاظها لتسمية السالتوس.

=2اللاتيفونديا : هي ملكية زراعية واسعة، تكون عبارة عن فندس أو عدة فنادس، يعني اسمها الأرض المحدودة، لكنها عرفت نموا كبيرا في العهد الامبراطوري، بعد ضم الأملاك الصغيرة المجاورة لها، وسيطر على معظمها مجلس الشيوخ والأباطرة.

ونعلم أن ملك هذه الأراضي الواسعة هم من الطبقة كانت تعيش بروما، لذا اعتمدت في فلاحتها على مسيرين يسخرون عددا كبيرا من الأجراء والعبيد يشرف عليهم مسير(conductor)،

وإذا امتلكت العديد من الضيعات المترامية هنا وهناك داخل نفس المقاطعة، يتم إنشاء نظام هرمي يبتدئ بمالك الأراضي (غالبا ما يعيش في روما أو عاصمة المقاطعة كقرطاجة) يليه في الرتبة الوكلاء Procurator الذي يليه مجموعة من المسيرين لتلك الضيعات والأراضي، وبهذا كان نظاما قائما على العبودية شبيه بذلك الذي عرفته مناطق إيطاليا، وصقلية، ونعلم ما قام في هذه المناطق من ثورات عنيفة قادها العبيد في القرن الثاني والأول ق.م، إلا أن مثل هذه الأزمات لم تعرفها منطقة شمال إفريقيا.

وعموما أظهر النظام القائم على العبيد محدوديته بسبب التهاون وعدم الجدية مما تسبب بتراجع الإنتاج وتحول مساحات كبيرة إلى أراض بور. لذا جرى اعتماد أسلوب جديد في التسيير وهو تأجير أراضيهم إلى مزارعين وفق عقود كثيرا ما تركز على تحمل المستأجر أخطار التي ممكن أن تهدد الأرض والمحصول.

أما بالنسبة لهؤلاء المستأجرين فغالبا كانوا من السكان المحليين، يتحصلون على مساحات واسعة يستغلونها مع عمال أجراء آخرين، أو يقوم المالك بتقسيم الأرض إلى قطع صغيرة يمنح كل واحدة لفرد يقوم بخدمتها ونرى هذا النظام شبيه بقانون L'ex Manciana حتى في الحصة التي يتحصل عليها المستأجر والمقدرة بالثلث والعمل مجانا لصالح المالك لمدة سنة أيام.

/3استغلال الأراضي الأقل خصوبة والبور: ويوجد نظام آخر لاستغلال الأراضي الأقل خصوبة والتابعة للدولة الرومانية فقد كانت تمنحها لمزارعين يستصلحونها، ثم كانت تقوم ببيعها في روما، ولتشجيع الأهالي على استصلاح هذه الأراضي الفقيرة ومثل الغابات والمستنقعات والأراضي المعزولة حيث يسمح لكل من يستصلح هذه الأراضي الاستفادة منها وحق توريثها لأولاده وإعفائه من الضرائب لعدة سنوات حسب نوع المحصول وفي المقابل يواصل أبنائه الورثة العمل بالأرض، ودفع جزء من الإنتاج كضريبة بعد مدة الإعفاء يقدر بالعشر 1/10 بالنسبة للحبوب والخمس 1/5 بالنسبة لثمار الأشجار. لكن جشع المسيرين جعلهم يتجاوزون القانون بحيث يجبرون المزارعين على دفع أكثر مما يحدد لهم القانون مما أضر كثيرا بالمزارعين الذين رفعوا الكثير من الشكاوي إلى الأباطرة لكن دون جدوى.

ثم علينا الإشارة لنوع آخر اعتمد في موريطانيا حيث كانت الزراعة أقل ازدهارا والأراضي اقل خصوبة، ولم يهتم الرومان بالاستيطان كثيرا بها، ولم تطبق عليها نفس النظام المتبع في إفريقيا ونوميديا الشرقية حيث كانت الملكيات تمنح الأمراء المحليين يقومون باستصلاح الأراضي وإدارة الملكيات، فلم يكن الاعتماد المباشر في الأرض على موظفين رومان من أجل ذلك.